

المستوى الصوتي وطرائق تدريسه

د. محمد إمام الكيش
كلية الآداب - جامعة الفاتح

اللغة تقوم على نظام دقيق يعتمد أساساً على مستويات : صوتية، و صرفية، ونحوية، ودلالية، وهذه المستويات شديدة التماسك، فيما بينها، فكل منها يؤدي وظيفة ترمي إلى أداء وظيفة الأخر، فسلامة المستوى النحوي من الخلل يترتب على سلامة المستوى الصرفي، وسلامة المستوى الصرفي يترتب على المستوى الصوتي. كل هذا يؤدي إلى سلامة دلالة المعاني بأكمل صورة، وأدق عبارة، و أوجزها.

سأبدأ بعون الله بدراسة هذه المستويات بطريقة الانتقال من الجزء إلى الكل، حيث أقوم بدراسة المستوى الصوتي، وإبراز خصائص كل صوت، وما يعترضه من تغيرات أثناء النطق، ومدى ملاعته لمجاوره وتأثره به. ثم أتعرض لدراسة المستوى الصرفي¹ الذي يقوم بدراسة التركيب في هيكل بنية الكلمة، وما يعترضها من تغيير لفظي ليسهل النطق بها، أو تغيير معنوي يؤدي بدوره إلى تغيير في وظيفته. ثم أقوم بدراسة المستوى النحوي الذي يدرس بدوره التأثيرات الخارجية في الكلمة بسبب العوامل الداخلة عليها، والمؤثرات التي تؤثر في تركيبها في الجملة يؤدي إلى دراسة المستوى الدلالي، الذي تجتمع فيه كل المستويات، حيث يؤدي كل منها معنى دلاليًا يؤدي إلى فهم معاني المفردات والجمل في أسلوب سلس رائق، وظيفته إفهام الناس أساليب الخطاب.

¹ أقوم بإعداد دراسة المستوى الصرفي، وستتبعها المستوى النحوي والدلالي إن شاء الله تعالى

1- دراسة المستوى الصوتي

تقوم دراسة المستوى الصوتي في الكلمة على أربعة أركان أساسية

- أ- كيفية نشوء الصوت في المخرج ومميزات كل صوت مفرد
 - ب- الصفات التي تتعلق بالصوت
 - ت- الأصوات التي يسمح لها بالتضام في الكلمة
- دلالة الصوت اللغوي.

أ - نشوء الصوت اللغوي في المخرج يبدأ باندفاع الهواء من الرئتين إلى أن يصبح في المخرج صوتاً تاماً، يؤدي وظيفته كاملة في الكلمة، فيمر بمراحل عدة إلى أن يصل إلى هذا المستوى، وهذه المراحل تبدأ باندفاع الهواء من الرئتين ماراً بالقصب الهوائية، فلسان المزمار، فالمخرج، حيث يتكوّن صوتاً فتعترضه بعض المقاطع التي تصبغه بلون خاص، وتعلق به بعض الصفات، فيتحدد مخرج كل صوت، ويتميز عن غيره من الأصوات، ويتركب معها في كلمة، فتظهر تعاريجها، وتصبح سلسلة في النطق جميلة في السمع .

فالصوت بالنسبة لجهاز النطق وحركة عضلاته كمزمار الناي يخرج منه الصوت مستطيلاً، ثم تعترضه بعض المقاطع، فيتلون الصوت وتخرج منه نغمات مختلفة، كل صوت حسب محل اعتراضات مقاطعه في المخرج، فتتضح معالم الصوت المفرد، وهذا ما أوضحه ابن جني بقوله : (اعلم أن الصوت عرض يخرج مع الشفتين مستطيلاً متصلاً، حتى تعرض له في الحلق والقم والشفتين مقاطع تشبه عن امتداده، واستطالته فيسمى المقطع، وإذا فطنت لذلك وجدته على ما ذكرت لك، ألا ترى أنك تبتدئ الصوت من أقصى حلقك، ثم تبلغ به أي المقاطع شئت، فتجد له جرساً ما، فإذا انتقلت منه متجاوزاً، ثم قطعت أحسست عند ذلك صدى ما، فإن رجعت إلى القاف سمعت غيره، وإن جزت إلى الجيم سمعت غير ذينك الأولين).¹

بهذا الشكل يتلون الصوت، وتظهر ملامحه الخاصة منفردة، فينسب إلى حيز واحد مع مجموعة أخرى من الأصوات يتحد معها في المخرج والصفة.

1- سر صناعة الأعراب: 6/1

وهذه الأصوات تنقسم إلى مجموعتين :

المجموعة الأولى : اتصفت بأنها هوائية، يخرج الهواء المصاحب للصوت حرًا طليقًا لا يعترضه في المخرج أي عائق، وهي الأصوات المتحركة، أي يتحرك الصوت مع الهواء في النطق بها، ولا يتوقف مدّ الصوت إلا بمقدار كمية الصوت المطلوب، وهذه الأصوات هي : الألف والياء، والواو، تنفق هذه الأصوات في المخرج والصفة، فتنتمي إلى مجموعة واحدة، وهي الأصوات المتحركة، إذ لا اختلاف بينها إلا بحركة العضلات التي تميّز كل صوت على حدة، فالألف عند النطق ينسط اللسان في الفم فينفتح مجرى الهواء ولا تتحرك أي عضلة أثناء النطق به. أمّا الياء فتتحرك له عضلة اللسان بحركة واحدة، وهي صعود مقدمة اللسان نحو الحنك قليلا، والواو يتحرك له أقصى اللسان نحو الحنك، وتتضمّن له الشفتان ؛ لذا كان الألف أخف وأسهل في النطق من الياء والواو، والياء أخف كذلك من الواو في النطق.

خفة النطق بالأصوات المتحركة جعلها لا تخلو منها كلمة عربية إن لم تكن من الألف والياء والواو فبعض منها، وهي : الفتحة والكسرة والضمة، يقول ابن جني : (تشبع الفتحة فيتولد بعدها ألف، وتشبع الكسرة فيتولد بعدها ياء، وتشبع الضمة فيتولد بعدها واو)¹.

والفرق بين الحركات الطويلة والقصيرة يتضح في كمية الصوت والزمن الذي تستغرقه في النطق؛² لأن الأصوات الطويلة تعد حركتين متتاليتين، أي مدّ الصوت بالحركة، وهو ما يعرف عند العرب ب(مطل الحركات)،³ بسبب هذه المميزات النطقية لهذه الأصوات كانت أكثر استعمالا وتداولاً في العربية .

المجموعة الثانية : يقابل الأصوات المتحركة الأصوات الساكنة التي تختلف فيما بينها في المخارج، فتتنقسم إلى ثلاث مجموعات : مجموعة أصوات الحلق، ومجموعة وسط الفم، ومجموعة ذلق اللسان والشفيتين.

¹ - المصدر نفسه : 23/1

² - أبو علي النحوي وجهوده في الدراسات اللغوية والصوتية : 232

³ - الخصائص : 121/3

فمجموعة أصوات الحلق تختلف فيما بينها في المخارج : مخرج أقصى الحلق (الحنجرة) يخرج منه الهمزة والهاء، ووسط الحلق يخرج منه العين والحاء، وأدنى الحلق مع اللهاة يخرج منه القاف، ومع الطبق يخرج منه الغين، والحاء، والكاف والواو غير المدية.

أصوات هذه المجموعة عمق مخرجها، فكانت أشد وأصعب في النطق إلا إذا تأثر الصوت ببعض الصفات التي تعلق به، فتزِيل عنه بعض الشدة والصعوبة، مثل صوت الهاء ؛ لأن فيها شيئاً من اللين والهمس، والحاء لهمسها ورخاوتها، والعين لرخاوتها ونصاعته جرسها، وفي هذا يقول ابن عصفور : (إن حروف الحلق أشد علاجاً، وأصعب إخراجاً، وأحوج إلى تليين آلة الصوت من غيرها، لذلك يحتاج إلى اعتمادات تكون في اللسان)¹.

ومجموعة وسط الفم تختلف كذلك في المخارج، فمخرج مقدمة اللسان مع الغار يخرج منه : الجيم، والشين، والياء غير المدية، ومخرج اللثة مع الأسنان يخرج منه التاء، والطاء، والذال، والضاد، والسين، والصاد، والزاي، ومخرج الأسنان مع طرف اللسان يخرج التاء، والذال، والطاء.

أصوات وسط الفم على الرغم من كثرتها تأتي في المرتبة الثانية، بعد حروف الحلق، فما كان منها أكثر عمقاً في المخرج كان يتطلب أكثر جهداً للنطق به، وذلك لقربه من الحلق، يقول ابن عصفور : (إن حروف الفم أخف من حروف الحلق.... وما يقرب من حروف الحلق أي الفم كان أخف من الذي هو أدخل منه في الحلق)².

ومجموعة ذلق اللسان والشفيتين، فالذلق مع اللثة يخرج منه اللام، والنون، والراء، أما الشفتان فيخرج منها، الباء، والميم، والشفتان مع الأسنان العليا يخرج منه الفاء.³

¹ - الممتع : 25/2

² - الممتع : 681/2

³ - ينظر الأصوات ووظائفها : 94

هاتان العضلتان تتمتعان بحرية في الحركة ؛ لأنهما آخر أعضاء النطق، لذا كانت الأصوات التي تخرج منها أسهل الأصوات استعمالاً وأكثرها تداولاً في بنية الكلمة العربية، قال الخليل : (فلما ذلقت الحروف الستة، ومذل بهن اللسان، وسهلت عليه في النطق، كثرت في أبنية الكلام، فليس شيء من بناء الخماسي التام يعرى بها أو من بعضها)¹،

جمعت هذه الحروف في قولهم : (مر بنقل) ثم زيد عليها حرفاً الطلق، وهما العين، والقاف، قال الخليل (العين والقاف لا تدخلان في بناء إلا حسنتاه ؛ لأنهما أطلق الحروف، وأضخمها جرساً، فإذا اجتمعا أو أحدهما في بناء حسن لنصاعتهما)² ويقول ابن جني في حق هذين الصوتين : (إن العين والقاف قد حسنتا الحال لنصاعة العين، ولذاذة مستمعها وقوة القاف، وصحة جرسها)³.

صنف الخليل بن أحمد هذين الصوتين في المرتبة الثانية، بعد حروف الذلاقة في تحسين بنية الكلمة، بل إنه لا تخلو منها إذا خلت من حروف الذلاقة، فقال : (مهما جاء في بناء اسم رباعي منبسط معرى من الحروف الذلق والشفوية، فإنه لا يعرى من أحد طرفي الطلاقة أو كليهما)⁴.

ويزيد الخليل تذوقه للأصوات ويقرر أن الدال والسين لهما من الاستعمال ما يجعلهما في مرتبة تقرب من حروف الذلاقة والطلاقة كذلك، فقال : (..... فإنه لا يعرى من أحد طرفي الطلاقة أو كليهما، ومن السين والدال أو أحدهما)⁵ ثم يبين سبب تفضيله لهذين الصوتين فيقول : (لأن الدال لانت عن صلابه الطاء وكزازتها، وارتفعت عن خفوت التاء فحسنت، وصارت السين بين مخرج الصاد والزاي كذلك)⁶ وهذا ما دأب عليه أحد المحدثين بقوله : (أما السين والدال فهما لينان، فالسين حرف هش قد أستحسنه العرب في بناء استفعال، والدال حرف لان عن صلابه الطاء، وارتفع عن خفوت التاء)⁷ وكذلك فضل الخليل صوت الهاء

1- العين : 52/1

2- المصدر نفسه : 53/1

3- صناعه الإعراب ك 65/1

4- العين : 54/1

5- المصدر نفسه : 54/1

6- المصدر نفسه : 35/1

7- الخليل بن أحمد أعماله ومنهجه : 16. د. المخزومي

للأسباب الصوتية ذاتها، فقال : (وإنما استحسنوا الهاء في هذا الضرب
للينها وهشاشتها، وإنما هي نفس لا اعتياص لها)¹

هذه الأصوات في الأغلب هي التي تزيدها العرب على المجرد من
الأبنية في العربية، ويقول ابن جني : (أخف الحروف عندهم وأقلها كلفة
عليهم الحروف التي زادوها على أصول كلامهم، وتلك العشرة المسماة
حروف الزيادة)²، ويقول ابن يعيش مؤيداً ما ذهب إليه ابن جني ذاكراً
سبب عدم زيادة غيرها بقوله : (إذ لو زادوا غيرها لم تؤمن نفرة الطبع
و الاستيحاش من زيادته)³.

والمتمأل في الأصوات العربية يجد أن لكل منها خاصية يمتاز بها
في النطق ، فثلاثة هوائية وهي : الألف، والياء، والواو، وستة للذلاقة
والشفتين، جمعت في قولهم (مر ينفل)، واثنان للطلاقة هما، العين،
والقاف لنصاعتهما ، والدال لليونتها عن الطاء، وخفوتها عن التاء، والسين
والهاء لليونتها وهشاشتها ، مجموع هذه الحروف يقارب نصف
الحروف الهجائية العربية.

وحتى تتم المعادلة بين الأصوات، وتتضح تعاريج الكلمة، فلا بد من
وجود المخالفة الصوتية في سهولة النطق بالصوت، مما أدى إلي كثرة
استعماله وتداوله، وعدم سهولة الصوت وقلة تداوله تعدد مخالفة في
الأصوات، وهذه المخالفة في حد ذاتها خاصية تجمل بنية الكلمة، حيث
تتأرجح أصواتها بين سهولة وعسر، وارتفاع وانحدار حتى تتساب موسيقاها
في سلاسة ويسر.

ب - الصفات التي تعلق بالصوت

الصوت عند إنتاجه له جانبان : الجانب الأول، وهو الموضع الذي
يتم فيه حبس الهواء أو يضيق عليه عند خروج الصوت يسمي المخرج،
ففيه ينتج الصوت.

¹ - العين : 54/1

² - سر صناعة الإعراب : 811/2

³ - شرح المفصل : 141/9

الجانب الثاني : وهو الكيفية أو الطريقة التي يتم بها حبس الهواء أو يضيق عليه في المخرج، ومن هنا يتميز الصوت بأثر يعلق به أثناء إنتاجه، ويسمى هذا الأثر الصفة، حيث يوصف الصوت بأنه شديد، أو رخو، أو مجهور، أو مهموس، أو مفخم، أو مرقق، أو مستعل، أو مستقل، أو منفتح، أو مطبق، أو غير ذلك من الصفات .

1- الأصوات الشديدة :

الشدة : صفة تعلق بالصوت، تجعله يخرج بقوة بعد انحباس الهواء انحباساً محكماً، أو يضيق عليه، فلا يسمح له بالمرور برهة ضئيلة من الزمن، ثم يتبعه انفراج سريع للهواء، فيخرج الصوت فجأة محدثاً دويماً داخل الفم بسبب هذا الانحباس والانفراج، وسمي المحدثون هذا الحالة بالانفجار، أي خروج الصوت بقوة بعد انحباس، يتصف بهذه الصفة عدد من الأصوات، وهي : الباء، والتاء، والجيم، والذال، والطاء، والقاف، والكاف.

هذه الأصوات يصعب النطق بها، تحتاج إلى مجهود عضلي كبير، وخاصة عند خلوها من الحركة التي تسهل إنتاجها، ويزيد من شدة هذه الأصوات صفة الجهر التي تقابل صفة الهمس التي تسهل النطق بالصوت، واتصف بصفة الهمس من الأصوات الشديدة صوتان هما : التاء، والكاف، فهما لم يحتاجا إلى التحريك بسبب الهمس، وهذا التحريك يكون بصوت ينبؤ به اللسان عن موضعه عند النطق، وهو ما يعرف بالقلقلة، والقلقلة تعني الخفة، والسرعة، وشدة اضطراب الشيء وتحريكه، وإنما سميت بذلك للصوت الذي يحدث عند الوقوف عليه؛ لأنك لا تستطيع أن تقف عليه لشدة الضغط¹.

وهي مصطلح عربي قديم احتاجت إليه بعض الأصوات، لإزالة صعوبة نطقها عند خلوها من الحركات القصيرة، وهذه الأصوات الشديدة المجهورة هي : القاف، والباء، والطاء، والجيم، والذال، جمعت في قولهم : (قطب جد)، وإنما قلقت وحركت بصوت يخفف من شدتها ؛ لأن النطق بها وهي خالية من الحركة يتطلب جهداً قوياً، يمكن ملاحظة هذا الجهد بالأذن المجردة ؛ لأن الأصوات اللغوية لا تنطق كلها على درجة

¹ ينظر اللسان (قل) : 567، 568/11

واحدة من الشدة، والقوة (ويؤثر في الصوت قوته ودرجة توتر أعضاء النطق، وكمية الهواء المتدفق أثناء النطق به)¹.

هذه الأصوات احتيج إلى تحريكها بصوت يجلب لها ما يسهل النطق بها، ؛ لأن النطق بالصوت خال من الحركة مع شدته أصلاً فيه صعوبة بالغة، وعسر كبير على المخرج، وقد يؤدي إلى اختفائه يقول د. عبد الصبور شاهين : (.... إحساسهم بأنها توشك أن تختفي في حالة حين تتحول إلى أصوات مهموسة خفية، فكانت هذه اللقطة وسيلة إظهار الصوت و توفيته حقه، وبخاصة في القرآن الكريم)².

هذا التحريك يكون أخف من خلو الصوت من الحركة، يقول محمد الأنطاكي، (ألا ترى أن الساكن أشد من المتحرك)³، وهو صوت لا يكون حركة كاملة بل بمقدار ما يزيل الثقل، ويسهل على اللسان النطق بالأصوات، ويزيل العوائق أمامه، ولا يتحول إلى حركة كاملة خوفاً من اللبس بالصوت الأصلي.

الرخاوة :

الصفة المقابلة لصفة الشدة صفة الرخاوة، التي تعني الهش والطول واللين،⁴ علل الجاربردي وصفها بذلك لقبولها التطويل، أي : جري الصوت في مخرجه عند النطق به،⁵ اتصف بهذه الصفة أصوات عند النطق بها يكون فيها شيء من الاسترخاء واللين، فتخرج هادئة مناسبة دون عرقلة الهواء المصاحب للصوت المنفذ من الرئتين، مما جعلها توصف بالسائلة،⁶ أو المائعة.⁷

والأصوات الرخوة هي : الهاء، والحاء، والعين، والحاء، والضاد، والطاء، والثاء، والذال، والفاء، والزاي، والصاد، والسين، والشين.⁸

1- دراسات في فقه اللغة : 95

2- التطور اللغوي : 215 د. عبد الصبور شاهين

3- دراسات في فقه اللغة : 95

4- اللسان (رخا) : 1342/14

5- مجموعة الشافية : 342/1

6- الألسنية العربية : 45،46/1

7- علم الأصوات لبرنتيل مالمرج : 113

8- الكتاب : 435/4

اختلف المحدثون مع القدماء في بعض الأصوات التي عدّوها من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة، فصوت الجيم عند القدماء شديد بسبب التعطيش، وعند المحدثين قليل الشدة مركب بين الشدة والرخاوة،¹ وصوت الضاد عدّه القدماء صوتاً رخواً، وعدّه المحدثون صوتاً شديداً مجهوراً² مفخماً.

التوسط :

ينص القدماء على أن التوسط يكون بين الشدة والرخاوة، والفيصل بينهما يتضح بمقدار حبس الهواء والتضييق عليه، وعدّ سيبويه صوت العين أول الأصوات المتوسطة وقال : (تصل درجة التردد فيها لشبهها بالحاء)³ الرخوة ؛ لأن مخرجها واحد غير أن الحاء صوت مهموس، والعين صوت مجهور.

وصفة التوسط هذه قد يكون المقصود منها التوسط بين الأصوات الصوائت والصوامت، ومن الأصوات التي اتصفت بهذه الصفة : اللام، والنون، والراء، والميم، والياء، والألف، والواو؛⁴ فالأصوات اللام، والنون، والراء، والميم، متسع فيها مجرى الهواء، فعند خروجها لا يحدث أي نوع من الحفيف، أي الصفير لعدم وجود احتكاك الهواء بأعضاء النطق، لذا أشبهت أصوات اللين في وضوح السمع، واشتركت في صفة التوسط معها، واقتربت منها في غيرها من الصفات، حتى وصفت بالسائلة،⁵ أو المائعة،⁶ وهذا ما دعا أحد المحدثين إلى الاعتقاد أن التوسط يكون بين الصوائت والصوامت، فقال : (مهما يكن من أمر فالواجب تفسير المصطلح (أصوات متوسطة) بأن المقصود أنها متوسط بين الصوائت والصوامت لا بين الشدة والرخاوة، ويبدو أن من سماها كذلك من العرب قد خانه التوفيق في التعبير)،⁷ ومع هذا لا يمنع وجود التوسط بين الشدة والرخاوة مثل صوت العين، الذي اعترف به القدماء والمحدثون على أنه متوسط بين الشدة

1- مناهج البحث في اللغة : 131

2- المصدر نفسه : 120

3- الكتاب : 435/4

4- سر صناعة الإعراب : 61 / 1

5- الألسنية العربية : 45، 46/1

6- علم الأصوات لبرتل مالبرج : 113

7- المصدر نفسه : 131، 132

والرخاوة، واختلفا في سبب هذا التوسط، وقد يكون التوسط بين الأصوات الصوامت و الصوائت، أو بعض الصفات الأخرى، وهو ما تمليه الظروف النطقية لكل صوت .

الجهر :

صفة الجهر من الصفات التي تعلق بالصوت المصاحب للهواء عند النطق، ويكون بعدم اتساع المخرج أو التضيق عليه، فيتذبذب الوتران الصوتيان بسبب ضعف الهواء المندفع من الرئتين، فتتكوّن نغمة موسيقية عالية، ويوصف هذا الصوت الخارج بالجهر ، وقد عبّر سيبويه عن ذلك بقوله : (إنه إشباع الاعتماد على الحرف في موضعه، منع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه)¹ وهذا ما عبّر عنه المحذثون باهتزاز الأوتار الصوتية، بسبب هذا الاهتزاز يكون مصدر الصوت الصدر و الفم،² والأصوات المهجورة هي : الباء، والجيم، والدال، والراء، والزاي، والضاد، والطاء، والعين، والغين، واللام، والنون، والياء، والواو، والألف.

المهمس :

هي صفة تجعل الصوت يخرج مع النفس،³ والمقصود هو خروج الصوت ضعيفاً مع جريان النفس عند النطق، فيقل الضغط والتضيق على المخرج، بهذا يخرج الصوت منسلاً لا نفخ قوي فيه يقرب من حركة النفس الاعتيادية، ويقل الرنين الناتج عن ذبذبة الأوتار الصوتية، ويخرج الهواء المصاحب للصوت مناسباً هادئاً، فيعطي التنغيم جرساً يميّزه عن غيره من الأصوات المهموسة،⁴ (ولو أن المرء حاول أن يجعل هواء النفس يمرّ في حالة الجهر بنفس القدر الذي يكون في حالة المهمس لما استطاع ذلك)⁵، بهذا الضعف، وهذا الخفوت يمكن تكرار الصوت المهموس، نحو : سسس، وككك، وههه، وهذا لا يتأتى مع الصوت المجهور، وهو

¹ - الكتاب : 434/4

² - الأصوات اللغوية : 20

³ - الكتاب : 135/4

⁴ - الدراسات الصوتية عند علماء التجويد : 127

⁵ - التطور اللغوي : 203 د.عبد الصبور شاهين

ما أوضحه سيبويه بقوله : (.... إذا اعتبرت فرددت الحرف مع جري النفس، ولو أردت ذلك مع المجهور لم تقدر)¹، والأصوات المهموسة هي : الفاء، والحاء، والثاء، والتاء، والهاء، والشين، والخاء، والصاد، والسين، والكاف، جمعت في قولهم : (فحثة شخص سكت)، ثم أضاف إليها المحدثون الطاء والقاف، معتمدين في حكمهم هذا على تجاربهم العملية فصوت الطاء -عندهم - عند النطق به يأخذ في اللسان شكلاً مقعراً منطبقاً على الحنك الأعلى، ويرجع إلى الوراء قليلاً، فيتم إقفال الأوتار الصوتية، لا يسمح بوجود الجهر،² أما صوت القاف فتفتح له الأوتار الصوتية قليلاً، ولا يتحرك له الوتران الصوتيان عند اندفاع الهواء في الحنجرة إلى الحلق الأدنى إلى الفم حيث ينطبق أدنى الحلق بأقصى اللسان، ثم ينفصلان فجأة³.

ويتبين أن هاتين الصفتين تختلفان في مصدر التصويت فيهما، فالجهر له مصدران : الفم والصدر، وهو صدى الذبذبات الصوتية التي تنتج عن اهتزاز الوترين الصوتيين⁴، وهذا يجعله أثقل في النطق، وأوضح في السمع من الهمس، أما الهمس فلم يعتمد في موضعه، فأخرج من الفم صوتاً ضعيفاً في جرسه، بسبب اتساع مخارج أصواته، وانبساط الوترين الصوتيين اللذين قلَّ صداهما في الصدر، فيصبح الصوت سهل الإخراج، دون تعب، أو جهد لأعضاء النطق، وهذا ما أدركه سيبويه بقول : (الهمس أخف من الجهر)⁵.

ويفرق بين مجهور الأصوات ومهموسها بمقدار اهتزاز الوترين الصوتيين، اللذين ينتج عنهما وضوح السمع، حيث يكون اهتزاز المجهورة أكثر من المهموسة، التي يهتز لها الوتران عند اندفاع الهواء بأقل درجة، حيث يحدث حفيفاً، أو احتكاكاً، فيكون صمت عن التنغيم، الناتج عم اهتزاز الوترين، هذا الاهتزاز مجهود عضلي يقل في الأصوات المهموسة، وهذا ما عبّر عنه القدماء بإشباع الاعتماد وانقضائه، ومع جري النفس مع الصوت الفم في حالة الهمس، ومصدره في حالة الجهر الصدر والفم، هذا

¹ - الكتاب : 434/4

² - ينظر مناهج البحث في اللغة : 122

³ - المصدر نفسه : 124

⁴ - الأصوات اللغوية : 20.

⁵ - الكتاب : 450/4

استنتاج القدماء في فهم الصوت المجهور والمهموس ، ولكن المحدثين أجروا تجارب جعلتهم يتأكدون من عظمة هؤلاء ؛ لأن نتائجهم اتفقت في أغلبها مع ما نص عليه الأقدمون، أهدتهم تجاربهم إلى معرفة الفرق بين الجهر والهمس بطريقة وضع اليد عن المتكلم بالصوت علي مقدمة الرقبة، أو على الصدر أو الأذنين ، فهذه المواضع بمثابة غرفة رنين يحدث فيها صدى الصوت الناتج عن اهتزاز الأوتار الصوتية، فهذه الاهتزازات يحدث لها تأثير عند التطق بالصوت على تلك المواضع، فيحسّ لامسها بهذه الاهتزازات أو الذبذبات، إذا كانت قوية كان الصوت مجهورا، و إذا كانت ضعيفة أو كادت تكون غير موجودة فالصوت مهموس.¹

الإطباق والانفتاح:

الإطباق صفة تقابل الانفتاح، ومعناه اللغوي : الغطاء أي طبق الشيء: غطاء وساواه، وواقفه² والانفتاح ضد الانطباق، وهو: أن لا يُطبق ظهر اللسان برفعه إلى الحنك فلا ينحصر الصوت،³ وقال مكي : (وإنما سميت بالمنفتحة لأنّ اللسان لا ينطبق مع الريح إلى الحنك عند النطق بها، ولا ينحصر الريح بين اللسان والحنك، بل يفتح ما بين اللسان والحنك).⁴ ويفرق بينهما بإطباق اللسان في المطبقة، وعدم إطباقه في المنفتح، أطلقت صفة الإطباق على الأصوات التي ينطبق اللسان على الحنك الأعلى عند النطق بها، ويأخذ شكلا مقعراً مع رجوعه إلى الوراء قليلا،⁵ والأصوات المطبقة هي : الطاء، والضاد، والظاء، والصاد، وغير ذلك أصوات منفتحة.

عرّف سيبويه الأصوات المطبقة بقوله : (وهذه الحروف الأربعة إذا وضعت لسانك في مواضعهن، انطبق لسانك من مواضعهن إلى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان، ترفعه إلى الحنك الأعلى، فإذا وضعت لسانك، فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنك إلى موضع الحروف)،

1- علم الأصوات 160 نرتيل مالميرج.

2- اللسان (طبق) : 209/10

3- الموضح في التجويد : 90 .

4- الرعاية : 98، 99

5- الأصوات اللغوية : 26

¹ يتفق مع سيبويه ابن جني في فهم الإطباق، حيث أوضح عبارته وأجزها، فقال : (والإطباق أن ترفع ظهر لسانك إلى الحنك الأعلى مطبقاً له، ولولا الإطباق لصارت الطاء دالاً، والصاد سيناً، والظاء ذالاً، ولخرجت الصاد من الكلام ؛ لأنه ليس من موضعها شيء غيرها، ونزول الصاد إذا عدت الإطباق إليه).² وأعتقد أن ابن جني لم يلحظ معنى الحصر الذي يبين أن الإطباق له درجتان كان ذكرهما سيبويه بقوله : (فهذه الأربعة لها موضعان من اللسان، وقد يُبين ذلك بحصر الصوت)،³ فالحصر لا يعني الإطباق، وإنما هو حصر الهواء فقط ولا يحقق انطباق اللسان انطباقاً تاماً، فالدرجة الأولى هي التي ينطبق فيها اللسان انطباقاً تاماً، ويكون ذلك في صوتي الطاء والصاد، ويترتب على هذا انفجار في الصوت عند النطق، أما الدرجة الثانية الطاء والصاد، فيقل الانطباق قليلاً بسبب الرخاوة، حتى أن صوت الصاد اكتسب صفة الصفير، وهذا الذي دعا مكي إلى القول (....) وبعضها أقوى من بعض، فالطاء أقواها في الإطباق، وأمكنها ؛ لجهرها وشدتها، والظاء أضعفها في الإطباق ؛ لرخاوتها وانحرافها إلى طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا، والصاد، والصاد متوسطتان في الإطباق).⁴

وبما أن الظاء أضعفها ؛ لأن الهواء يخرج بأقلّ ضغط عليه ولما فيها من رخاوة، ثمّ الصاد لأن الصاد يتمتع بضغط على الهواء أكثر من الصاد، وأقلّ من الطاء والصاد، مما أكسبه صفة الصفير والرخاوة، ولعل هذا ما عناه سيبويه بالموضعين.

الاستعلاء والاستفال :

من الصفات التي لها أثر في نغمة الصوت صفتا الاستعلاء والاستفال واختصت كل منها ببعض الأصوات والاستعلاء مأخوذ من العلو والارتفاع، عرفه المرعشي بقوله : (الاستعلاء أن يستعلي اللسان عند النطق بالحرف إلى جهة الحنك الأعلى).⁵

¹ - الكتاب : 434 / 4

² - سر صناعة الإعراب : 61 / 1

³ - الكتاب : 436 / 4

⁴ - الرعاية : 123

⁵ - الجهد المقل : 124

الاستفال والانخفاض بمعنى واحد، وهو ضد الاستعلاء، قال الداني : (إما سُميت مستقلة ؛ لأن اللسان لا يعلو بها إلى جهة الحنك)¹.

ذكر سيبويه أصوات الاستعلاء عند ذكره للإمالة فقال (فالحروف التي تمنعها الإمالة هذه سبعة : الصاد، والضاد، والطاء، والظاء، والغين، والخاء.... وإنما منعت هذه الحروف من الإمالة ؛ لأنها حروف مستعلية إلى الحنك الأعلى)²،

لم يذكر سيبويه مصطلح الاستفال، وإنما ذكر ضدّه وبما يمتاز ولعله عنده من باب تحصيل حاصل، وذكر ابن جني مصطلح الانخفاض، وهو مرادف للاستفال، فقال : (وللحروف انقسام آخر إلى الاستعلاء والانخفاض، فالمستعلية سبعة وهي : الخاء والعين والقاف، والضاد، والطاء، والصاد، والظاء، وما عدا هذه الحروف فمنخفض)³.

التفخيم :

من الآثار السمعية المؤثرة في نغمة الصوت تفخيمه، إذ تجعله يمتلئ به الفم فيخرج الصوت مفخماً، قال المرعشي : (هو عبارة عن سمن يدخل جسم الحرف فيمتلئ الفم بصداه)⁴، وهذا الأثر قد يكون له معنى دلاليًا في الكلمة⁵،

وأصوات التفخيم هي : الصاد، والضاد، والطاء، والظاء، والخاء، والغين، والحاء، والعين، والقاف⁶. تجمع هذه الصفة مجموعة أصوات الإطباق، وأصوات الاستعلاء، وعلى الرغم من الاختلاف في المخرج فإنهما يجتمعان في هذا الأثر السمعي الذي يمتلئ الفم به وهو ما عناه عبد الوهاب القرطبي بقوله : (التفخيم والإطباق الاستعلاء من واد واحد)⁷، غير أن التفخيم أكثر عمومية، فهو يشمل : الإطباق والاستعلاء، فأصوات الإطباق أكثر تفخيماً من أصوات الاستعلاء، وذلك لأن اللسان في الإطباق

¹ التحديد في الإتيان : 228

² - الكتاب : 128، 129/4

³ - سر صناعة الإعراب : 62/1

⁴ - الجهد المقل : 125

⁵ - الأصوات اللغوية : 50

⁶ - الموضح : 90

⁷ - المصدر نفسه والموضح نفسه.

يعلو وينطبق، أما الاستعلاء فيعلو اللسان ولا ينطبق، والتفخيم باق في أصوات الإطباق ولا يتأثر بالمؤثرات الصوتية الأخرى الخارجية، وهذا ما دعا د. تمام حسان إلى القول: إن التفخيم مرتبط بالحروف لا بالمواقع¹، وهذا يكون في أصوات الإطباق فقط، قال د. تمام حسان: (حروف الإطباق الأربعة مفخمة إلى درجة أكبر من تفخيم الحروف الطباقية الثلاثية، وهي ترد مفخمة أكثر مما ترد الثلاثية الطباقية، وذلك لأن حروف الإطباق لها تفخيم في كل حرف علة سابق ولاحق، أما الثلاثية الطباقية فإنها لا تفخم في مجاورة الكسرة)²؛ لأنه مؤثر خارجي يرتبط بالتفخيم فيه بالموقع المجاور.

وظاهرة التأثير أكثر ما تكون في صوتي السلام والراء اللذين يتأرجحان بين التفخيم والترقيق بحسب الموقع، فإن كان قبلهما ضمة أو فتحة فيفخمان، وهذا ما أجمع عليه علماء اللغة والقراءات، وقد يشترك معهما الألف في هذه الظاهرة، وإن اختلف التعبير في ذلك فأطلقوا على التفخيم بالألف الإمالة نحو الضمة، فهما يلتقيان في امتلاء الفم عند النطق بالألف، قال ابن منظور: (التفخيم هي التي نجدها بين الألف والواو، كقولك: سلام عليكم، وقام زيد، وعلى هذا كتبوا الصلوة، والزكوة، والحيوة كل ذلك بالواو؛ لأن الألف مالت نحو الواو)³، أي فخمت وامتأ بها الفم عند الطنق.

الترقيق:

الترقيق صفة ضد التفخيم، وهو مصطلح صوتي اعتنى به علماء القراءات والتجويد، وهو (عبارة عن نحول على جسم الحرف فلا يمتلئ الفم بصداه)⁴، والحروف المرققة هي الحروف المستقلة وهي غير حروف الإطباق والاستعلاء، قال ابن الجزري: (الحروف المستقلة كلها مرققة، لا يجوز تفخيم شيء منها إلا اللام من اسم الله تعالى بعد فتحة أو ضمة إجماعاً.... وإلا الراء المضمومة أو المفتوحة مطلقاً في أكثر الروايات والساكنة في بعض الأحوال).

¹ - ينظر منهج البحث في اللغة: 154

² - المصدر السابق: 154

³ - اللسان (فخم) 450\12

⁴ - نهاية القول المفيد: 93

ب - تضامّ الأصوات :

تضامّ الأصوات، أو التشكيل الصوتي، أو النسج الصوتي هذه المصطلحات لها معنى واحد ويطلق عليه مصطلح علم الأصوات التشكيلي أو (الفونولوجيا)، وهو نسج الأصوات، أو تضامّ صوت مع صوت في كلمة واحدة؛ لأنّ الصوت المفرد لا يؤدي معنى، ولا بد من أن يتشكل مع غيره، وهذا النظام لا بدّ أن يخضع لقوانين صوتية تجعل الكلمة تسير في نظام محكم منسق تحكمه علاقات خاصة باللغة تعارف عليها أصحابها الذين ملكوا ناصيتها، وعرفوا أسرارها، وفهموا معانيها، فهم بحق أصحاب ذوق رفيع، وإدراك عميق، وبعد نظر، فالعربي بطبعه ذواق للغته، مدرك لمرامي معانيها، تكون سهلة على لسانه الفصيح، مفصحة عن بيانها البديع، واللغة تأبى أي نظام لا يستقيم مع فصاحتها، ولا تقبله قريحة العربي، وتتفر منه طباع فطرته، فهو دائماً يبحث عن تجانس أصوات كلماته، وسلامتها في التركيب وفق ما تمليه عليه ظروف بيئته التي عليها يحيا، وفيها يجول، بهذا يرفض كل تأليف في لغته لا يوافق فصاحته وبلاغته، بدءاً بسلامة فصاحة الكلمة إلى سلامة السياق في تركيب الجملة. وضح علماء العربية الأصوات التي يمكن أن تتألف، وتسلم الكلمة في الأداء الصوتي ومن العيوب المخلة بفصاحتها، والأصوات التي لا يمكن تألفها؛ لأنه يؤدي إلى تلعثم اللسان وعرقلته، وعدم سيره في سلاسة مما يوحي بعدم سلامة الكلمة وفصاحتها.

نُقل عن الخليل قوله : أن تنافراً في تأليف الحروف يحدث إذا تركز الكلام من مخارج بعيدة أو قريبة؛ لأنّ الكلام إذا قربت حروفه قرباً شديداً كان ذلك بمنزلة مشي المقيد؛ لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه، وإذا بعدت بعداً شديداً كان بمنزلة الطفر، وفي الحالتين كليهما صعوبة على اللسان،¹

البعد والقرب الشديدان عند الخليل من أسباب عدم تضام الأصوات غير أنّ البعد الشديد لم يقل به أحد غيره من الذين اهتموا بتألف الأصوات في الكلمة؛ لأنّ انتلاف الحروف عند الخليل معيار لمعرفة البناء الصحيح من كلام العرب، ويعد الخليل رائد البحث في هذا الموضوع، فقد أشار إلى

¹ انظر رسالة النكت في إعجاز القرآن : 96

أنّ صحة تأليف الأصوات وتجاورها في النطق يرجع إلى مدى قربها وبعدها من بعضها في المخارج، لذا قال: لم نجد في العربية نون تليها راء، (نر)¹، ولم نجد ضادا تليها كاف (ضك)²، وعدم جواز ائتلاف العين مع الغين، والهاء مع الحاء والحاء لقرب مخرجها³،

أخذ ابن جني فكرة تضامّ الأصوات والتشكيل الصوتي واستكمل ما بدأه الخليل وانتهى إلى أن تأليف الأصوات وتألفها له ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى : وهي تأليف الأصوات المتباعدة في المخارج، وهو الأفضل والأحسن، وهذا أكثر شيوعاً وتداولاً، ولكنه لم يشر إلى ما أشار إليه الخليل من أن البعد الشديد في التأليف مخلّ بالفصاحة كالقرب الشديد حتى وصفه بالطفر من صوت إلى صوت.

المرتبة الثانية : تأليف المضاعف وهذا النوع حسنت جودته، وهي مرتبة تلي المرتبة الأولى في القبول، ومن أمثلتها : سلك، و مجج، وأقق، يقول ابن جني : (كان تضعيف الحرف عليهم أسهل من تأليفه مع ما جاوره)⁴، وهذا ما عناه الخليل وسمّاه بالمحاكاة، نحو : الققللة والوسوسة، فقال : (وهو ما كان عجزه مثل حرفي صدره، وذلك بناء يستحسنه العرب، فيجوز فيه من تأليف الحروف جميع ما جاء من الصحاح والمعتل، ومن الذلق ومن الطلق، ومن الصتم)⁵.

المرتبة الثالثة : وهو دون المرتبتين، إمّا مرفوض، أو قليل الاستعمال، وقد نصّ ابن جني على ما يرفض في الاستعمال، نحو : سص، طس، وطث، وضس، وشض، مج، وجق، وكق، وكج، وجك⁶، ومما قلّ استعماله كالجمع بين الزاي والشين في كلمة : مستشزرات في قول الشاعر :

غدائره مستشزرات إلى العلا :: تضل العذارى في مثني ومرسل

1- ينظر العين : 53/1

2- ينظر المصدر نفسه : 56/1

3- ينظر المصدر نفسه : 61،55/1

4- سر صناعة الإعراب : 816/1

5- العين : 55/1

6- سر صناعة الإعراب : 814،815/2

ومثله التأليف في كلمة (الهعخع)، قال الخليل : يقولون : عه عه، عهعت بها،¹ أي جزرت الإبل.

هذه تراكيب تحكمها قوانين صوتية خاصة لهذه اللغة يفهمها ويتذوقها من تربى عليها.

وعند أهل التحقيق أن الأصوات كلما تباعدت في مخرجها كان التضام فيها أسلم، وأحسن، وأجمل، ولكن ليس البعد الشديد، وإذا تقاربت الأصوات في المخرج كان التأليف فيها قليل، أو مرفوض تنفر منه الطباع. وأقلّ الأصوات تألفاً مع بعضها أصوات الحلق؛ لما فيها من القرب الشديد وعمق المخرج، مما أدى إلى صعوبة في النطق، ومن ذلك ما نصّ عليه الخليل من أنه لا يجوز ائتلاف العين مع الغين، والهاء مع الحاء والخاء.²

أما الأصوات الفموية فهي تأتي في المرتبة الثانية في قلة التآلف، فأصوات أقصى اللسان : القاف والكاف والجيم من وسط الحنك لا تتآلف، يقول ابن جني: (يتلو حروف الحلق حروف أقصى اللسان، وهو القاف، والكاف، والجيم، وهذه لا تتجاوز البتة، لا نجد في كلامهم نحو : قـج، ولا جـق، ولا جـك، ولا قـك، ولا كـق، ويقول ابن دريد : (لم تتآلف الكاف والقاف في كلمة واحدة، إلا بحواجز، ليس في كلامهم قـك، ولا كـق، وكذلك حالهما مع الجيم، وليس في كلامهم جـك، وكـج)،³ وأصوات وسط الفم الموصوفة بالصفير : الصاد، والسين، والزاي فلا تتآلف متجاورة، نحو : سـص، صـس، زـص، صـز، وكذلك أصوات طرف اللسان وأصول الثنايا لا تتآلف، وهي : التاء، والذال، الطاء، إلا إذا تقدم الطاء والتاء على الذال، نحو : وتد، ووطد،⁴ وأصوات اللثة والأسنان لا تتآلف، وهي : الظاء، والثاء، والذال، نحو : ظـظ، وئظ.⁵

¹ - العين : 169/2

² - ينظر العين : 16-55/1

³ - جمهرة اللغة : 44/1

⁴ - ينظر سر صناعة الإعراب : 818/2

⁵ - الخصائص : 54/1

أما أصوات الذلق إذا تقدمت الراء على باقيها جاز ذلك، مثل :
ورل، وأرل، وورند، (ولو قدمت واحدة منها على الراء لم يجز؛ لأنهما
أقوى منهما)¹.

والأصوات الشفوية في تضامها مع بعضها يقول ابن فارس : (الباء
من الشفة لا تأتلف مع الفاء والميم، أما الفاء فلا تقاربها الباء متقدمة، ولا
متأخرة، أما الميم فلا تتقدم على الباء ملاصقة لها بوجه، ولا متأخرة كذلك
إلا في قولنا شيم)².

وإن كان لابد من اقتران ما تنافرا من الأصوات قدموا الأقوى على
الأضعف في الجرس الصوتي، وعلل ابن جني ذلك بأمرين :

الأول : أن مرتبة الأقوى أبداً أسبق وأعلى
الثاني : إنما يقدمون الأثقل ويؤخرون الأخف لأن المتكلم في أول نطقه
يكون أقوى نفساً، وأظهر نشاطاً، فقدم الهمزة على الهاء في نحو : أهل،
وعلى الحاء في نحو أحد، وعلى العين في أعهد، وعلى الخاء في أخ، قدم
العين على الهاء في عهد.

هذه طبيعة صوتية يسير عليها النظام البنائي داخل بنية الكلمة ؛ لأن
قرب الأصوات وبعدها عن بعضها بدرجة مناسبة لا القرب الشديد ولا البعد
الشديد يجعلها أكثر سلاسة في الأداء الصوتي وأقرب إلى سلامة اللغة في
الاستعمال والتداول.

ولهذا الاستعمال والتداول درجات متفاوتة نقلها السيوطي عن
السبكي من كتابه (عروس الأفراح)، وجعلها في تراكيب الكلمة الثلاثية
متدرجة في الكلام الجاري على الألسن مرتبة حسب قرب المخارج وبعدها
في اثنا عشر بناءً،³ وهي :

- 1- الانحدار من المخرج الأعلى إلى الأوسط، نحو : (ع د ب).
- 2- الانتقال من الأعلى إلى الأدنى إلى الأوسط، نحو : (ع ب د)، هذا

¹ - المصدر نفسه والموقع نفسه

² - الصاحبى : 131

³ - ينظر المزهري : 197/1

ما صححه د.تمام حستان¹، وأصل المثال : (ع ر د) ؛ لأن الدال مخرجه من وسط اللسان، والراء من ذلق اللسان وطرفه مع اللثة، والباء مخرجه من الشفتين وهو المقصود من المثال²

3- من الأعلى إلى الأدنى إلى الأعلى، نحو (ع م ه).

4- من الأعلى إلى الأوسط، نحو : (ع ل ن). على الرغم من اتحاد اللام والنون في المخرج ؛ إلا إن اختلافهما في الصفة جعل فيهما فرقا قليلا في المخرج، (فاللام يجري معها من جانب اللسان، وأمّا النون فإن هواءها يجري في الخياشيم وهي أوغل من جانب اللسان وأبعد).³

5- من الأدنى إلى الأوسط إلى الأعلى، نحو : (ب د ع).

6- من الأدنى إلى الأوسط إلى الأعلى، نحو : (ب ع ت).

7- من الأدنى إلى الأعلى إلى الأدنى، نحو : (ف ع م).

8- من الأدنى إلى الأوسط إلى الأدنى، نحو : (ف د م).

9- من الأوسط إلى الأعلى إلى الأدنى، نحو : (د ع م).

10- من الأوسط إلى الأدنى إلى الأعلى، نحو : (د م ع).

11- من الأوسط إلى الأعلى إلى الأوسط، نحو : (ن ع ل).

12- من الأوسط إلى الأدنى إلى الأوسط، نحو : (ن م ل).

هذا التدرج في المخارج يعتمد أساساً على تباعد الأصوات غير الشديد، قال السيوطي مفاضلاً بينها في التراكيب : (وأكثرها استعمالاً ما انحدر فيه من الأعلى إلى الأوسط إلى الأدنى ثم ما انتقل فيه من الأوسط إلى الأدنى إلى الأعلى، ثم من الأعلى إلى الأدنى إلى الأوسط⁴)، الأول هو أفضل التراكيب؛ لأنه يتدرج مع المخارج الأول فالأول

دلالة الصوت اللغوي :-

الصوت اللغوي المفرد ليس له دلالة تفهم، أو معنى خاص به يؤدي، فلا بد من أن يتضام مع غيره في صيغة، حتى يكون له دلالة خاصة،

1- مناهج البحث في اللغة : 136

2- المصدر نفسه والموضع نفسه

3- المصدر نفسه والموضع نفسه

4- المزهر : 197/1

ووظيفة تؤدي، تظهر دلالاته عندما يكون ضمن أصوات كلمة يراد بها إبراز معنى دلالي معين، فيحتاج إلى صفات تعلق به، تساعد على إبراز خصائص هذا الصوت النطقية والدلالية، يقول د. تمام حسّان في توضيح دلالة الصوت المفرد : (الصوت المفرد هنا كالنغمة الموسيقية المفردة، تتعين دلالاته في محيطه العملي. فالكاف من (كتب) وهي في بيئتها الصوتية من الكلمة لا يمكن أن يستغني عنها ولو جعلنا الكلمة مكونة من التاء والباء فحسب لانعدمت دلالة الكلمة عن مدلولها العرفي، ولكن مرجع انعدامها إلى انعدام الكاف من الكلمة. فإذا كانت الكاف في (كتب) صاحبة كل هذا الخطر فلا بد أنها تتحمل قسطاً من الدلالة. ومن ثمّ تصبح حين تنطق رمزا صوتياً على هذا القسط، وتصبح الكلمة المركبة منها ومن التاء والباء ذات دلالة على المعنى العرفي المعطى لها، غير أن دلالة الكاف على نصيبها من معنى كتب تتعذر دراستها لعدم مقبولية تقسيم هذه الدلالة إلى أجزاء بحسب الأصوات)¹.

وقد تحدث تغييرات صوتية في الصيغة ينتج عنها تغييرات دلالية، فيحل صوت محل صوت آخر يناسب معنى آخر يطلبه السياق، أو يحذف من الكلمة صوت أو يضاف إليها صوت آخر لغرض دلالي آخر، وهو تغيير صوتي أدى إلى تغيير دلالي حتى يطابق اللفظ معناه، وترتبط به صورة حسية أو معنوية.

تتضح هذه الدلالة في كلمة (آثار) تعطي معنى دلالياً يختلف عن معناها إذا تقدمت عليها همزة مثل (آثار)، فالهمزة أضافت دلالة أخرى إلى الكلمة، وقد يستبدل صوت التاء بصوت النون، فيتغير المدلول نهائياً، ويصبح بناء الصيغة من اشتقاق آخر، وهو (نار)، إذا ما أبدل جيماً يتغير كذلك بناء الصيغة، فيعطي مدلولاً يختلف عن مدلول الصيغتين السابقتين فتصبح (جار)، فالصوت هنا له دلالة وظيفية داخل كل مجموعة صوتية، وبهذا يتضح أثره في بنية الكلمة.²

هذا الأثر الدلالي للصوت في بنية الكلمة اهتم به ابن جني وتحدث عنه في باب (أمساس الألفاظ وأشباه المعاني). فقال (أمّا مقابلة الألفاظ

1- اللغة بين المعيارية والوصفية : 116، 117

2- ينظر اللغة بين المعيارية والوصفية : 120

بما يشاكل أصواتها من الأحداث. فباب عظيم واسع، ونهج متائب، عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر عنها، فيعدلونها بها، ويتخذونها عليها، وذلك أكثر مما نقتدره وأضعاف ما نستشعره)¹،

استنبط علماء علم اللغة الحديث مصطلح المقابلة، وأطلقوا على هذا النوع مصطلح (التوزيع التقابلي)، حيث يحل فونيم محل آخر في كلمة ما، فتتسا كلفة ذات معنى مختلف)،² عن المعنى الأول.

يعرض ابن جني بعض الأمثلة لدلالة الصوت التي سماها مقابلة الألفاظ، فقال: (من ذلك قولهم: خضم، وقضم. فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء، وما كان نحوهما من المأكول الرطب، والقضم للصلب اليابس؛ نحو: قضمت الدابة شعيرها، ونحو ذلك، وفي الخبر) قد يدرك الخضم بالقضم (أي قد يدرك الرخاء بالشدّة واللين بالشطف، وعليه قول أبي الدرداء: (يخضمون ونقضم والموعد لله)،³ وأنشد لأيمن بن خريم الأسدي يذكر أهل العراق حين ظهر عبد الملك على مصعب فقال:

رجوا بالشقاق الأكل خضماً، وقد رضوا ::

أخيراً من أكل الخضم أن يأكلوا

القضما⁴

ثم ينسب ابن جني سر اختلاف الدلالة بين صوتي الخاء والقاف إلى صفاتها فجعل للخاء الرخاوة التي تدل على اللين والسهولة على أكل السهل والرطب، وجعل للقاف الشدة التي تدل على الصلابة، وتطلب القوة في أكل الصلب واليابس، فقال: (اختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس).⁵

¹ - الخصائص: 157/2

² - معجم علم اللغة النظري: 58

³ - الخصائص: 157/2

⁴ - اللسان (قضم): 487/12

⁵ - الخصائص: 158/2

ويذكر ابن جني مثالا آخر فقال : (ومن ذلك قولهم : النضح للماء ونحوه، والنضح أقوى من النضح، قال تعالى : (فيهما عينان نضاختان)،¹ أي فوّارتان، وعين نضّاحة تجيش بالماء، أي كثيرة الماء.² (جعلوا الحاء - لرقتها - للماء الضعيف، والحاء - لغظها - لما هو أقوى).³ في الدفع والنضح.

وصفت الحاء بالرقّة و الضعف ؛ لأنها صوت مستقل، ولما للقرب الشديد بين الرقة والاستفال، والحاء بالغلظة والقوّة ؛ لأنه صوت مستقل. لما لهاتين الصفتين من القرب. لذا قالوا (النضح : شدة فور الماء في جيشانه وانفجاره من ينبوعه)،⁴ ولزيادة توضيح الفرق بينها جاء في اللسان : (والنضح ما كان على اعتماد، وهو ما نضحت به يدك معتمداً، والناقّة تنضح ببولها)، بعكس النضح وهو (ما كان على غير اعتماد).⁵ متدفقاً تلقائياً.

ومن ذلك أيضاً : القد، والقط وهما للقطع، والفرق بينهما في كيفية القطع، قال ابن جني : (ومن ذلك القد طولاً، والقط عرضاً، وذلك أن الطاء أحصر للصوت وأسرع قطعاً له من الدال، فجعلوا الطاء المناجزة لقطع العرض؛ لقربه وسرعته، والدال المماثلة لما طال من الأثر، وهو قطعه طولاً).⁶

القد : القطع المستأصل والشق طولاً.⁷ والقط : القطع عامة، وقيل : هو قطع الشيء الصلب.⁸

اختاروا الطاء لقطع العرض والصلب ؛ لأن الطاء مطبق ومستعل، وهو شديد يحتاج على مجهود أقوى لما فيه من غلظة لذا كان لقطع الصلب، واختاروا الدال لقطع الطول وغير الصلب التي وصفها ابن جني

¹- سورة الرحمن الآية : 66

²- اللسان (نضح) : 62/3

³- الخصائص : 158/2

⁴- اللسان (نضح) : 61/3

⁵- اللسان (نضح) : 618/2

⁶- الخصائص : 158/2

⁷- اللسان (قد) : 344/3

⁸- اللسان (قطط) : 380/7

بالمماثلة لطول الأثر، وهو صوت منفتح و مستقل، بهذا تلبين قليلا على الرغم مما فيها من شدة.

ومما يذكره ابن جني قولهم : الوسيلة و الوصيلة، والوسيلة أقل في الاتصال من الوصيلة ؛ لأن الوسيلة من التوسل، والوصيلة من الصلة كاتصال الأعضاء بالإنسان، فاخترأوا الصاد للأقوى لما فيه من استعلاء وإطباق أدى إلى تفخيم الصوت، واخترأوا السين للأضعف ؛ لما فيها من استقال وانفتاح¹ أدى إلى بعث اللين فيها.

النبير :-

يساعد على التغييرات في أداء المعنى الدلالي بعض الإيحاءات الدلالية الصوتية التي تجعل أصوات الكلمة أو الصيغة أو بعض كلمات الجملة تتفاوت قوة وضعفا، بحيث ينطق الصوت المنبور أو الكلمة المنبورة بجهد أكثر، فيتطلب مجهوداً عضلياً أشد² بحسب الحالة المراد إبرازها في الصيغة، أو في الجملة، فيكون أكثر وضوحاً في السمع، وهو ما يعرف بالنبر، وعرقه بعضهم بقوله : (الضغط على مقطع معين من الكلمة بقصد إيضاح هذا المقطع وإظهاره، أو على كلمة معينة في الجملة بقصد تأكيدها)³، وعرقه د. تمام حسان بقوله : (هو وضوح نسبي لصوت أو مقطع إذا قورن ببقية الأصوات والمقاطع في الكلام، ويكون نتيجة عامل أو أكثر من العوامل الكمية)⁴، وأوضح د. أحمد مختار عمر أن جميع تعريفات النبر تتفق على أن النبر يقتضي طاقة زائدة أو جهداً عضلياً إضافياً، ودلل على ذلك بقول جونز : (المقطع المنبور بقوة ينطقه المتكلم بجهد أعظم من المقاطع المجاورة له في الكلمة أو الجملة. فالنبر إذن نشاط ذاتي للمتكلم ينتج عنه نوع من البروز لأحد الأصوات أو المقاطع بالنسبة لما يحيط به)⁵.

¹ - ينظر الخصائص : 160/2

² - علم اللغة العام (الأصوات) : 164

³ - ينظر معجم علم اللغة النظري : 268 محمد علي الخولي مكتبة لبنان 1972 م

⁴ - مناهج البحث في اللغة : 160

⁵ - دراسة الصوت اللغوي : 221

والنبر نوعان : نبر دلالي، ونبر صرفي، وهذا الأخير هو الذي يكون في المقاطع الصوتية أو بالأخص المقطع الأخير أو ما قبل الأخير من الصيغة، أما النبر الدلالي أو السياقي أكثر ما يكون لتقرير الصيغة أو تأكيدها بالضغط على الصوت المراد إظهاره أو على الكلمة التي أراد المتكلم إبرازها،¹

والنبر الدلالي يكون على مقطع في الصيغة المفردة، يقول إبراهيم أنيس : (المرء حين ينطق بلغته يميل عادة إلى الضغط على مقطع خاص من كل كلمة ليجعله بارزاً أوضح في السمع من غيره من مقاطع الكلمة)،²

وقد يكون النبر على كلمة في جملة لإبرازها وإظهار التأكيد المعنوي الدلالي فيها، وهو ما يقصده المتكلم، ويختلف الغرض من النبر بحسب اختلاف القصد، يسوق د. إبراهيم أنيس مثالا لذلك، فقال : (...ففي جملة عربية مثل (هل سافر أخوك أمس) يختلف الغرض منها باختلاف الكلمة التي زيد نبرها، فحين نزيد نبر كلمة (سافر) في هذه الجملة، قد يكون معناها أن المتكلم يشك في حدوث السفر من أخ السامع، ويظن أن حدثاً آخر غير السفر هو الذي تمّ، فإذا ضغط المتكلم على كلمة (أخوك) فهم من الجملة أن المتكلم لا يشك في حدوث السفر، وإنما الذي يشك فيه هو الفاعل السفر، فربما كان أباه أو عمّه أو صديقه لا أخاه، وإذا زيد نبر كلمة (أمس) فهم من الجملة أن الشك في تاريخ السفر)³ فالنبر إنما هو اهتمام بمقطع داخل الصيغة، أو بكلمة داخل الجملة لزيادة إظهار معناها وتأكيد إحياء بأن دلالتها محط اهتمام من المتكلم وتوصيل هذه الدلالة إلى السامع.

التنغيم :

مؤثر آخر من الإحياءات التي تساعد على فهم دلالة الصوت (تنغيم الصوت) وهو مصطلح يدل على ارتفاع الصوت و انخفاضه في الكلام، ويسمى موسيقى الكلام،⁴ وعرقه أحد المحدثين بقوله : (هو تتابعات مطّردة

1- ينظر المصدر نفسه 162، 161

2- الأصوات اللغوية : 170

3- الأصوات اللغوية : 174

4- علم اللغة العام (الأصوات) 163

من مختلف أنواع الدرجات الصوتية على جملة كاملة، أو أجزاء متتابعة. وهو وصف للجمل وأجزاء الجمل، وليس للكلمات المختلفة المنعزلة¹

بهذا نرى أن للتنغيم درجات تختلف من صيغة إلى صيغة، ومن جملة إلى جملة حسب الموقف المطلوب، أحياناً تستعمل نغمة متوسطة عادية على امتداد طولها، وأحياناً تستعمل نغمة عالية، وأحياناً تبدأ منخفضة وتنتهي عالية، وأحياناً تبدأ عالية وتنتهي منخفضة،² حسب الدلالة المراد تأديتها في إفهام المعنى، وإيضاحه للسامع بقدر حاله، ويكون في أغراض كثيرة، منها: التهكم والزجر أو الموافقة، أو الرفض والاستغراب، أو الدهشة،³ وغيرها من العوامل النفسية التي لها أثر في الكلام، فتتطلب نوعاً من التنغيم يختلف عن غيره في الدرجات، نرى ذلك في قوله تعالى: (أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله).⁴ فوجود همزة الاستفهام في أول الجملة يحتاج إلى تنغيم خاص من القارئ لإيضاح نغمة الاستفهام، وهذا يساعد على إفهام الدلالة المقصودة، ولو لم يستخدم القارئ الإيحاءات التنغيمية هذه لضعف معنى الاستفهام. ويفوت على السامع فهم معنى هذا الاستفهام،⁵

فالتنغيم بالصوت أو الكلمة يأتي إلينا بكثير من الإيحاءات الدلالية التي تدلّ على المواقف النفسية تبين حالة المتكلم عندما يرفع صوته، أو يخفضه، وحسب هذه المواقف ومعطياتها النفسية تكون الحالة النطقية للكلمة أو الجملة.

وهاتان الدالتان (النبر و التنغيم) لهما أثر كبير في دلالة الصوت المفرد في الصيغة أو الكلمة في الجملة تملئها عليه الحالة النفسية للمتكلم والسامع، وهذا الأثر نجده عند القراء أثناء تلاوة القرآن الكريم، وعند الشعراء والخطباء في إلقاء قصائدهم وخطبهم، وعند سامعيهم.

1- دراسة الصوت اللغوي : 229

2- أسس علم اللغة : 95.

3- المصدر نفسه : 163

4- سورة المائدة : 116

5- ينظر : علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية : 34

طرائق تدريسه

واللغة من جهة اكتسابها لها جانبان : جانب جزئي، وجانب كلي :

فالجانب الكلي يعتمد أساساً على اكتساب اللغة عن طريق المحادثة والقراءة المستمرة، بنوعيتها : الجهرية التي من خلالها يتم التدرب على النطق السليم، والسرية التي أغلب ما تكون لفهم المعاني والدلالات بهذا يكتسب الإنسان جملاً ومفردات لغوية دون النظر إلى ما تحويه من قواعد في تراكيبها، فتتربى عنده ملكة تملي عليه أساليب رفيعة تجعل اللغة تنساب على قلمه أو لسانه، وهذه الطريقة كثيراً ما ينصح بها الأساتذة طلابهم ؛ لأنها تسهل عليهم فيما بعد تعلم القواعد الأساسية والثانوية في اللغة، حتى تصبح القوانين التعقيدية النحوية أكثر سهولة واستيعاباً لها وفهماً، وهذا جانب من جوانب ما يعرف عند النحاة المحدثين بالمنهج الوصفي الشمولي في اللغة.

أما الجانب الجزئي أي الطريقة الجزئية فهي تعتمد أساساً على تدريس القوانين التعقيدية أولاً بأول، ثم تطبق هذه القوانين على النصوص، وهذه الطريقة التعقيدية المعيارية في الغالب ما تؤدي إلى عدم استيعاب ما تمّ دراسته استيعاباً كاملاً من القواعد ؛ لأنها لا يعتمد على أرضية من الثروة اللغوية، تقوم على مساندة في فهم القواعد وإدراك مراميها التي يجب أن تطبق عليها النصوص.

وقديماً درج العلماء والمعلمون المؤدّبون على تعليم تلاميذهم حفظ القرآن الكريم، ذلك الكتاب المنثور الرائع، الذي يعدّ دعامة متينة، وأرضية صلبة قوية، يستند إليها كل دارس للعربية ومقاييسها وقواعدها.

فمن خلال دراسة القرآن الكريم، وطرائق تعلمه وحفظه المعروفة فيما يعرف ب(الكتاب) اليوم، وهي المشافهة والنقل الصوتي، أي : الأخذ والرد بين المدرس وطلابه، وإصلاح ما فسد، عند النطق بالصوت أو الكلمة أو الجملة في حينه، وهذا يعتمد على علو الصوت الذي يبعث في النفس الثقة والشجاعة على القراءة الجهرية والنطق السليم للأصوات، وهي الطريقة المثلى التي تجعل الطلاب يتدربون على النطق السليم للأصوات ويكتسبون ثروة لغوية من مفردات وجملاً تكون لهم

أساساً سليماً لاستيعاب وفهم القواعد المعيارية التي تساعد على فهم معاني أساليب اللغة وتراكيبها.

هذه الطريقة تعد أفضل الطرائق التعليمية ؛ لأنها تدرب الطلاب على النطق السليم لأصوات اللغة، وتقوّم الألسن، وتسهّل لهم الحفظ، وهي تجمع بين النقل الصوتي والكتابي، فضلاً عما تتميز به من فروق فردية بين المتعلمين، وهو ما امتازت به طرائق تدريس القرآن الكريم عن غيرها من الطرائق التدريسية الأخرى، حيث نجد اهتماماً كبيراً بالقراءة والتلقين والاستقبال والاسترسال بين المدرس وطلابه، واهتموا بالعامل الصوتي مما جعل القراءات القرآنية تحتفظ بكثير من الخصائص اللغوية واللهجية في اللغة، وهو ما درج عليه الأقدمون في تعليم أبنائهم.

أردت أن أعرض لهذا الاعتقادي بأن اللغة تكتسب بالتلقين والتلقي والمشاهدة، وهو ديدنها منذ الطفولة، فيأخذ الطفل لغته عن أمّه، ثمّ من من حوله إلى مقاعد الدراسة أو الكتاب الذي يُدرّس القرآن الكريم بطريقته الفريدة، التي وصفها علماء طرائق التدريس بأنها أفضل الطرائق التعليمية، لما لها من مميزات، وليس لها عيوب تذكر، وهذا تسخير من الله سبحانه وتعالى للإنسان المسلم لتعليم وتعلم كتابه الكريم بطرائق صوتية وكتابية سليمة، كلّ حسب مقدرته التي قدّرت له.

وحفظ القرآن الكريم ودراسته يعد قاعدة صلبة ومثيمة ورصيماً لغوي ثراً لكل دارس ؛ لأن به تتفتح المدارك ويتوسع الأفق، ليس لدارس اللغة فحسب، بل في جميع العلوم زيادة على ما له من أثر سلوكي على الإنسان، قال أبو عمر بن العلاء في حسن التعليم والتعلم : (أول العلم الصمت، والثاني حسن الاستماع والثالث حسن السؤال، والرابع حسن اللفظ، والخامس نشره بين أهله)¹

دراسة وفهم المستويات اللغوية تحصل بكتا الطريقتين، التين تؤديان إلى فهم اللغة وإبراز خصائص جزئيات الكلمة وتحليلها وتفنيتها من الداخل، لما فيها من دلالات ومعاني تؤدي إلى قيم أسلوبية رفيعة وتجعل الدارس مبهوراً بها مشدوداً إليها.

مصادر البحث ومراجعته

- 1- القرآن الكريم
- 2- أبو علي النحوي وجهوده في الدراسات اللغوية والصوتية، د. علي جابر المنصوري، مطبعة الجامعة، بغداد 1987 م.
- 3- أسس علم اللغة، لماريو باي، ترجمة د. أحمد مختار عمر، منشورات جامعة طرابلس 1973 م.
- 4- الأصوات اللغوية ووظائفها، د محمد منصف القماطي، منشورات جامعة الفاتح 1986 م.
- 5- الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، الطبعة السادسة 1984 م.
- 6- الألسنية العربية، ريمون طحان، دار الكتاب اللبناني.
- 7- التحديد في الإتيان، لأبي عمر و الداني، تحقيق د. أحمد عبد التواب الفيومي، مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الأولى، 1993.
- 8- جمهرة اللغة، لابن دريد، تحقيق رمزي منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى 1987.
- 9- الجهد المقل، للمرعشي، تحقيق د سالم قدوري الحمد، دار عمّار، الطبعة الأولى 2001 م.
- 10- الخصائص، لابن جني، تحقيق علي محمد النجار، دار الكتاب العربي بيروت.
- 11- الخليل بن أحمد، أعماله ومنهجه، د. مهدي المخزومي، دار الرائد العربي بيروت، الطبعة الثانية 1986 م.
- 12- الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، غاتم قدوري الحمد، مطبعة الخلود، بغداد، الطبعة الأولى 1986 م.
- 13- دراسات في فقه اللغة، محمد الأنطاكي، دار الشرق العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، 1996.
- 14- دراسة الصوت اللغوي، د. أحمد مختار عمر، نشر عالم الكتب، بيروت 1997 م.
- 15- رسالة النكت في إعجاز القرآن، للرماتي، تحقيق محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة 1976 م.
- 16- الرعاية لتجويد القراءة، لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق أحمد حسن فرحات، دار عمّار، الطبعة الثانية 1974 م.
- 17- سر صناعة الإعراب، لابن جني، د. حسن هندراوي، دار القلم، دمشق 1993 م.
- 18- شذرات الذهب، لابن عماد الحنبلي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، 1966 م.
- 19- شرح المفصل، لابن يعيش، عالم الكتب، بيروت.
- 20- صاحبني في فقه اللغة، لابن فارس، تحقيق السيد أحمد صقر، القاهرة 1977 م.

- 21- علم الأصوات، لبرتيل مالمبرج، تعريب عبد صبور شاهين، مكتبة الشباب، القاهرة.
- 22- علم اللغة العام (الأصوات)، كمال بشر، دار المعارف، مصر، الطبعة السابعة 1980 م.
- 23- علم الدلالة، دراسة نظرية تطبيقية، د. فريد عوض حيدر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1999 م.
- 24- العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق، مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى 1988 م.
- 25- الكتاب لسبويه، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1975 م.
- 26- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت.
- 27- اللغة العربية معناها ومبناها، د.تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء.
- 28- مجموعة الشافية، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة 1782 م.
- 29- المزهري في علوم اللغة، للسيوطي، تحقيق محمد إبراهيم أبو الفضل وآخرين، عالم الفكر، بيروت.
- 30- معجم علم اللغة النظري، محمد علي الخولي، مكتبة لبنان 1982 م.
- 31- الممتع في التصريف، لابن عصفور، تحقيق فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الرابعة 1979 م.
- 32- مناهج البحث في اللغة، د.تمام حسان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1990 م.
- 33- نهاية القول المفيد، محمد مكي نصر، تحقيق محمد الصباغ، مطبعة مصطفى الحلبي القاهرة.